

# عنترة..

## بطل السيرة الملحمي

• الأستاذ أحمد محمد المساوي •

يمكن اعتبار «سيرة عنترة بن شداد» المصدر الذي تحيل عليه باقي السير الأخرى المماثلة، فصاحب «سيرة ذات الهمّة» — مثلاً — يسعى لتقديم صورة مثلى لبطله الصحاح، فارس بني كلاب، عن طريق استشارة صورة أخرى أكثر رسوخاً في الذهن العربية، وهي صورة عنترة، البطل الفارس:

«إنه لو عاش في عصر عنترة لجعله من رجاله، ولعدا عنترة بن شداد من غلمانته»<sup>(١)</sup>

ولا يكفي صاحب «سيرة حمزة البهلوان» بتشبيه بطله بعنترة، بل يمتد هذا التشبيه إلى مقارنة فرسه بحصان عنترة «الأخضر» المشهور.

ويستقي هذا التأثير بشخصية عنترة عناصره من الملاح العامة لهذه الشخصية، التي أصبحت مثلاً يحتذى في باقي السير المشابهة.

ويرسم القصاص الشعبي صورة لعنترة الطفل، تغاير صورة الأطفال في مثل سنه. وعيى السيرة الخيال الشعبي لتقبل بطولات .. وخوارق عنترة الرجل «وكان مع صغر سنه شدة البطش، لا يسالي بالأهوال، حتى كانت نهايه الأبطال»<sup>(٢)</sup> فقد قتل كلياً وهو لم يتجاوز أربع سنين، وذلياً وهو في سنه التاسع، وهجم على أسد وأرداه قتيلاً، ومثل به، وهو

ما زال فتى. ولما اشتد عوده واستكمل مقومات رجولته، أصبح الفارس الذي لا يقاوم، واعترف ببطولته الأقران داخل الجزيرة العربية وخارجها. وتصور السيرة أبا الفوارس، يخوض صراعاً مستميتاً في دنيا الفعل والقول، من أجل فرض مقياس عادل، يلغي في الاعتبار مقياس العبودية واللون، ويتحقق قيم العدل والمساواة، في مجتمع متخلف، تسوده علاقات قبلية عنصرية.

يقول عترة في هذا الإطار :

فإن عابوا سوادي عند ذكري

وجاروا من عادي في ملاهي

فلي قلب أشد من الرواسي

ولولي مثل لون المسك نام

وما أسمو بلون الجلد يوماً

ولكن بالشجاعة والكلام<sup>(١٢)</sup>

ونعرض السيرة صورتين متقابلتين، فيما

نوع من المفارقة، فيما تمثل في عترة

- العبد الأسود - صفات البطولة

والشجاعة، وسمات البياض، نجد في المقابل

شخصية الربيع بن زياد - الشريف النسب

يقدم في صورة الخنث المدلل، المتأمر على

حياة عترة.

وتقدم لنا السيرة مفارقة أخرى، تمثل في

كون زبيبة أم عترة فارسة تقاوم الفرسان،

بخارقة بذلك سلوك الإمام، الذي تحدده

أعراف مقيدة لحرته.

ويوضع عترة أمام محك التجربة، ليثبت

فيها جدارته، وأحقته في الانضمام إلى

صفوف الأحرار، ويصارع أكثر من فارس،

ويحقق الانتصار. ونجلي عن حقيقة معدنه في

أكثر من موقف حاسم. وكما يؤكد عترة

ذاته كفارس شجاع، يؤكد أنها مكانته

الأدبية كشاعر من الفحول، ويواجه في

مشاهد روائية رائعة، أصحاب المعتقدات

الذين يرون في نسبه ما يحول دون إدراجهم

في زمريهم. ويقنعهم بحد السيف، وأسر

البياض، بأن أساس التفاضل يتم على أرض

الواقع، لا على سماء الأوهام. ويعلن للمقياس

الحقيقي للسمو في قوله :

وما أسمو بلون الجلد يوماً

ولكن بالشجاعة والكلام

وينتج عترة هذه المواقف الحاسمة بتعليق

معلته على جدران الكعبة، بعد أن حال

نسبه نحو العربي دون تحقيق ذلك. وإلى

جانب هذا التكريم، نحرص السيرة على تقديم

بطل يتصف بالشجاعة، ليجسد بهذه

القضية أحلام الشعب. ونحرص في المقابل

على إضفاء نفس الخصلة على غريمه، لإثبات

قوة البطل الذي لا يتقهر بسهولة، والذي لا

ينازل إلا الأتداد الذين يكافئونه بأسا

وشجاعة.

وتتقرن صفة البأس بخصلة العقل في

وجدان الشعب، الذي يجعل الحيلة والألمعية،

وقوة الملاحظة، من الصفات التي تستلزمها

ثقافة الحرب. هذا علاوة على المروعة التي

تعني القدرة على حماية النفس، والوطن،

والمال، مع الترفع عن الصغار والدنايا. ويمثل

عترة الوعي الجماعي، ويتجلى ذلك من

خلال الهدف الذي كان يكافح من أجله،

ويضعه نصب عينيه، وهو يخوض صراعاً

ملحمياً من أجل تفويض تقاليد زائلة،

راسخة في البدولة، هشة كفرده ينتمي إلى

ويتوج ملكاً على جميع الفرسان. وتُقرن السيرة انتصار عترة في ميدان الفروسية بغوزه بحب عفة واخترانه بها.

وتعكس السيرة عن مفعول الحب العفيف في شحن عترة بطاقة تضالية وإبداعية عجيبة؛ فمحبوبته عيلة «كانت سبباً لفصاحته ومقاومته الأبطال وشجاعته وتجربة لسانه، لأنه كلما ذكرها فاض بالشعر لسانه وطلبت نفسه المنزلة العالية وقوي جنانه»<sup>(٦)</sup>

وكان من عبقريّة عترة أنه كان يصدر في مثله عن قيم إنسانية، كانت إلهاماً للمبادئ الإسلامية التي ستجعل حداً للعصبيات القبلية، وتوسع من الوجدان القومي :

«قال الراوي ... إن النبي ﷺ قال لزهو ومن كانوا حوالياً لو أدركت عترة ابن شداد لشدت به قطراً من أنظار البلاد»<sup>(٧)</sup> ورغم أن عترة كان شاعراً، وفارساً جاهلياً، يتصارع من أجل تقويض قيم مجتمعه الجائرة، فقد اكتسبت شخصيته مع المجتمع الإسلامي صفة البطولة الإسلامية.

وإذا كانت السيرة في إطار آخر تقدّم البطل في صورة سمجة تتددت معالمها ساعة ميلاده : «جاءت بولد ذكر، وهو أسود أدغم، أظفاس المانخر، واسع المهاجر، مهذل الأشداق، مكعر الآماق، مفلفل الشعر،

جماعة، وخلق قيم جديدة فجمع جديد، تنفّس فيه العبودية، وتحقق فيه العدالة الاجتماعية. وانطلق البطل بتغنى بعظمته وبسالته، حتى تحول عنده تركب النفس، وعقدة الدونية إلى النقيض، هو الإحساس بالعظمة والبطولة، وهما المثال الأعلى الذي كان ينشده الرجل في عصره. ولم يكن عترة يتغنى بالقتل، أو يتسلّى بمشهد إراقة الدماء، كما هو الشأن عند بعض الشعراء الجاهليين، بل كان يتاضل على الواجنتين التعبيرية والواقعية من أجل تحقيق هدف أسمى وهو أن «يحرر (الإنسان) في إنسانيته، ويحرر (الحب) في حيّه»<sup>(٨)</sup>.

وقد كانت عاطفة الحب حافزاً من الحوافز التي أعانته على انتزاع الاعتراف من أهله وقبيلته، وأحقته في الانتهاء إلى مجتمع الأحرار.

يقول عترة غناطياً صديقه مالك بن الملك زهير :

«وما طلبت من أبي النسب إلا لكي يسهل علي وصالحا بهذا النسب»<sup>(٩)</sup>

وهو لا يحقق هذا الهدف إلا بعد أن يهذل جميع الصعاب، ويتغلب على كل المعوقات التي وضعها المؤلف في طريقه فينجح في تخليص عيلة من الأسر أكثر من مرة، وهو لا يتأها إلا بعد أن يسهق كل أعدائه،

صلب العظام كأنه قطعة من غمام»<sup>(٨)</sup> فإن  
الفارس البطل يصر مع ذلك، على تجاوز هذا  
الشكل الذمى، عن طريق تبني قيم معنوية  
راقية، وسلوك بطولي نادر، ومن أجل صيانة  
هذه القيم، قتل عنترة عبد الملك شاس  
الكثرة جوراً وسوء أخلاقه لأنه عمد إلى  
امرأة عربية ودفعها في صدرها فألقاها على  
ظهرها وأضحكت العبيد عليها عند انكشاف  
سترها»<sup>(٩)</sup>

وفي المقابل تقدم السيرة البطلة المشوقة  
عبلة، باعتبارها مثال الحسن والجمال؛ فهي  
«غزالة مدعورة» و«مليحة عذراء» ومهففة  
بيضاءه تبدو للناظر كاليدى ليلة اكتماله.  
ويعترف عنترة بأنه إذ يتغزل بها، فهو  
يصف فقط «ما .. كساها الله من الجمال  
الذي فاقت به كل ذوات الحجال»<sup>(١٠)</sup>.

ولا تنتهي الحكاية بموت عنترة، فقد جعلت  
له السيرة امتداداً في بطولات أبنائه،  
واستمراراً في معاركهم. ولا غرابة إذ نجد  
ابنته غنيمته «تشبه أباهما في اللون والمنظر  
ولعلها تخلفه في الشجاعة والفروسية  
والبراعة»<sup>(١١)</sup>.

ولكن لا تصدم السيرة مشاعر القراء  
المتعاطفين مع فارس الفرسان، والمتعلقين به  
كنموذج مثالي، تحاول تبرير مقتل بطلها،  
والذي تم بأيد أئمة، غدرت به، وهو عائد  
من انتصار خارجي على قبصر ملك الروم.  
ولإرضاء الوجدان الشعبي، تأفى السيرة  
إلا أن تأخذ القصص عاجلاً من القاتل،  
فتجعل نهايته مباشرة بعد إطلاقه سهم الغدر  
على عنترة، الذي تشابه مصيره مع نهاية  
البطل الأسطوري، الذي لا يفسحه إلا قدره  
كقوة عليا، لا قبل له بها.

### المواضع

- (١) أنشود على السيرة القصيدة | فاروق حورث - ص: ٦٥٧ - النكبة الثقافية - العدد ١٠١، ١٥١ مايو ١٩٩٤م.
- (٢) سورة حمزة بن شداد | الأحمسي - المجلد ١ - ص: ١١ مطبعة محمدي - القاهرة
- (٣) نفس القصص ص: ٦٤
- (٤) السمات القروية في التراث الأدبي العربي | حميد مروان - مجلة الآداب البوذية - ص: ٢٠ - العدد ٥ (يناير ١٩٩٥م)
- (٥) سورة حمزة - المجلد ١ - ص: ٥٦
- (٦) نفس القصص - ص: ٦٣
- (٧) نفس القصص - المجلد ٨ - ص: ٣٣٦
- (٨) نفس القصص - المجلد ١ - ص: ١٠
- (٩) نفس القصص - ص: ١٨
- (١٠) نفس القصص - ص: ٣٧
- (١١) نفس القصص - المجلد ٨ - ص: ٣٢٨